

■ مقالة / الجزء الثاني والآخر

المرجعية الدينية الرشيدة في النجف الأشرف

مدار الحجة وسطوع البرهان

■ د. أبو عباس النجفي

⚠️ الأبحاث و المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي «الآفاق» بالضرورة، بل تعبر عن رأي أصحابها

في قيادة هذه الحرب الكبيرة ضد الفساد ورموزه ولازالت الإرادة ثابتة بإزاحتهم ولازال الأمل بالنصر راسخا لا يتزعزع.

سيف يقطع دابر الإرهاب: إن مواقف المرجعية المتواترة من العفو والصفح عن المسيء وإطفاء نيران الفتن والصبر عند الشدائد وكظم الغيظ والإغضاء عن الأذى والتشديد على الوحدة الوطنية، قد بلغت من الحد أن ظن العادي إن هذا كله من الضعف والخوف والاستكانة الذي ينتاب المرجعية وجموع الشعب المؤمن، فسولت له نفسه أن يجمع فلوله ويهجم هجمة شرسة على العراق في يوم عز فيه النصير وتخاذل فيه القريب والبعيد وانكشف فيه الخور الفاضح في المؤسسات الأمنية والعسكرية التي بنتها الحكومة، فما كان من المرجعية إلا أن تنهض كالأسد المغضب في ساعة العسرة، وتصلو برجالها وحشدها المقدس من أبناء العراق البررة عبر فتوى الجهاد الكفائي المقدسة، لتسحق جموع العدوان وتطحنهم طحنا في معارك العز والشرف ليعلو عندها صراخ العدو وعويله ويتردد صده في دول التآمر وعواصم العدوان، وسط دهشة العالم بأسره.

لقد كشفت هذه المعركة العادلة التي فرضتها قوى الإرهاب العالمي على العراق وهي كما يقال الضارة النافعة، كشفت عن وجه آخر ناصعا من وجوه القيادة المرجعية وأظهرت المزيد من ملكاتها الفريدة وأبرزت أهليتها وقدرتها على إدارة الملفات الكبرى والعمل بثبات وصبر وشجاعة في الأزمات التي تعصف بالامة والمحن الخطيرة التي تداهمها، ففي الوقت الذي ينكص فيه الجميع وبما فيهم الرؤوس المتربعة على هرم المسؤولية وتفرق الجموع ويصمت المذعن عند ساعة الشدة والضر، تنهض المرجعية كالطود الشامخ نهضةً يتفاجى بها القريب ويصدم بها البعيد ويذهل بها المتابع، لتدود عن الأمة وتدفع عنها الخطوب والمحن وتأخذ بيدها بعيدا عن موارد الهلكة، وهي على هذا الحال حافظة لحدود الشرع ومتبعة للسنة الحميدة والأخلاق الكريمة لا تؤثر هوى على رشد ولا تترك للباطل دون الحق، تسير بهدي الأوصياء الأوائل عليه السلام واثقة بنصر الله وحسن وعده لعباده الصالحين. وفي الوقت ذاته فقد كشفت هذه المعركة حقيقة الأغلبية التي يتشكل منها الشعب العراقي وطبيعة عنصرهم ونفيس معدنهم وكريم سجايهم وحقيقة انتمائهم المصيري والوجودي والوجداني إلى هذا الخط العظيم يوم التفوا حول قيادتهم الحقيقية الشجاعة، وهم الفقراء والمعدمين والعزل إلا من الإباء والحمية والشجاعة والبطولة والنخوة والتضحية في سبيل الله والمقدسات والوطن، فكانوا بحق أبناء بررة للمرجعية وللوطن، وازدهت بفضل بطولاتهم أيام العراق رغم المآسي وجسامه التضحيات، وعادت حمى الوطن ومقدساته محفوظة ومصونة على أيديهم وبركة دماهم الطاهرة.

المصدر: مجلة فجر عاشوراء العدد ٤ و ٥

وكانهم يقولون في سرهم: وهل مثلنا من تقدم له هذه النصائح وقد جننا من أحزاب وتيارات إسلامية نعرف فيها الحلال والحرام؟! **المرحلة الثانية:** إعادة تذكير الجهات المتصدية بالنصيحة وذلك بعدما صموا وعموا عن السماء والنظر في أهمية هذا النصح وهنا كانت الاستجابة عبارة عن خطابات شكلية وإجراءات إعلامية مضللة للرأي العام لم تقترب إطلاقا من رموز الفساد ولا من حصونهم المنيعه ولم تفتح أو تعالج أي قضية فساد.

المرحلة الثالثة: الإنذار والتحذير من خلال تشخيص الجهات التي كانت وما تزال سببا لهذا الفساد والانحراف، حيث قامت بحث رأس الجهاز التنفيذي على الضرب بيد من حديد على تلك الجهات ومحاسبتها قبل فوات الأوان، وأحدث الخطاب هزة واضحة في أركان المنظومة السياسية المعنية به وبدأ جو من التوتر والقلق ينتاب رموز هذه الجهات وبدأت تفكر في كيفية التخلص من حالة من التلازم الوجودي مع الفساد فوجودهم صار مرهونا بوجوده ونهايتهم مرهونة بنهايته، وهنا وبالرغم من عملية الالتفاف والضغط التي مارسوها على هذه المطالب، إلا أن ما أصابهم من نذر وارتيابك وتضعض، يعتبر موقف متقدم لصالح الحركة المناهضة للفساد بقيادة المرجعية.

المرحلة الرابعة: التوبيخ والتقريع بالصمت والإعراض عنهم وذلك بعدما بحث الأصوات بالنصح والتوجيه من دون استجابة ملموسة، وهذا ما أحدث زلزالا كبيرا في أطراف العملية السياسية واضطرابا عنيفا مما سبب تبادل الاتهامات وتصعد التحالفات المعقودة فيما بينهم وانهيار التفاهات المبنية على تقاسم المصالح واستنزاف الموارد، مما ساعد في حدوث شروخ كبيرة في المنظومة المسؤولة عن الفساد وهو موقف متقدم لصالح محاربة الفساد.

المرحلة الخامسة: التنكيل المباشر بهذه الأطراف المشككة لمنظومة الفساد والشكوى إلى الله تعالى من أعمالهم، حيث جاءت هذه المرحلة بعدما ران على قلوبهم واستعصوا على الهداية والرشاد، وهو ما عزز حالة الانقسام الكبير في منظومة الفساد ووسع الشروخ فيما بينهم وسحب بساط الشرعية منهم، وسرّع بظهور النزاعات والاتهامات بالفساد وكشف الملفات المتبادلة وإزالة الأقنعة بعدما كانوا يعيشون في أبراجهم المحصنة بالشرعية ومتسترين بعباءة الدين وخطابات الشرع المقدس، إن تفشي الصراع بين تلك الأطراف قد سبب الضعف إلى كياناتها وأدى إلى محاصرتها من قبل الرأي العام وإسقاط كافة الذراع والحجج من أيديهم، وهو موقف متقدم كبير آخر ما كان من الممكن الوصول إليه لولا صبر ومثابرة وثبات المرجعية في هذه المعركة وعزمها على الانتصار فيها لصالح الشعب والوطن. ولازالت المعركة مستمرة ولازالت الآمال معقودة على الله تعالى أولا وعلى المرجعية

والانقلابات والعودة إلى المربع الأول والحقب المظلمة، وهنا تجدر الإشارة إلى المحاولات العديدة البائسة واليائسة التي قامت بها عبثا وتخيلا وتضليلا، عدة أطراف داخلية وخارجية لطقن بالمرجعية من خلال تحميلها مسؤولية صعود أطراف فاسدة إلى سدة الحكم عبر بوابة الانتخابات، وللد على تلك الإدعاءات الباطلة يمكن العودة إلى المصطلح الذي على ضوئه بُني تحرك المرجعية وهو الأبوة الصالحة التي تربي الشعب وتثقفه وتحتته على المشاركة وتوجهه لاختيار الأصلح من دون أن يكون لها تدخل في نوعية ذلك الخيار فإن وفق الشعب لذلك فيها وإن لم يحسن الاختيار فإن أبواب التغيير مشرعة وتصحيح الأخطاء متاح وكل شيء بيد الشعب لا بيد غيره، وهذا الكلام موجه لكل عاقل فطن ومنصف، أما من كان خلاف ذلك فلا كلام معه.

فأس تهدم أصنام الفساد: لقد قادت المرجعية معركة الإصلاح ومحاربة رموز الفساد، بطريقة كانت غاية في الحكمة والصبر والأناة والتدرج في إلقاء الحجة وسحب كل المبررات من الأطراف التي تدور حولها شبكات الفساد وذلك لأن هذا الملف خطير وحساس نتيجة لتأثيره المباشر على الوضع الإداري والاقتصادي والتنموي ومن ثم الوضع السياسي والأمني للبلد، وباختصار شديد فهو يؤثر على بقاء الكيان العراقي كدولة، لذا فقد اتسمت طريقة معالجة هذا الملف من قبل المرجعية بأقصى درجات الوعي لطبيعة الظرف وتجنب التأثير السلبي على بقية الجهات المفتوحة على العراق، فمن جهة يتوجب إيقاف استنزاف العراق، ومن جهة أخرى يتوجب منع أعداء العراق من الاستفادة من هذه المعركة واستغلالها لصالحهم، فكان السير في هذا الطريق أشبه بالمشي وسط حقل مليء بالألغام والمفخحات.

لقد وظفت المرجعية منبر الجمعة الذي يصدر من مرقد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء المقدسة، من أجل توجيه وإدارة هذه المعركة ومعارك العراق الأخرى، فقد كانت تبث خلال خطب الجمعة وصاياها لكل من المتصددين والشعب وترسم لهم الخطوط والمحددات والمطالب التي ينبغي الأخذ بها لأجل مكافحة الفساد، كما وكانت تشير إلى الجهات التي يتوجب عليها المبادرة بهذه العملية وتبين موقفها من الأطراف الممتنعة عن السير في طريق الإصلاح، وكل هذا تم على مراحل وحسب ما يفرضه منطق الاستجابة والرفض ومبدأ إلقاء الحجة على المعنيين بالآمر، وهنا يمكن للمراقب أن يرصد خمسة مراحل من الخطاب المرجعي والذي اخذ منحى تصاعديا في هذه المعركة، والمراحل هي:

المرحلة الأولى: النصيحة الخالصة، حيث بدأت بعد أن تشكلت أول حكومة دائمة فكان الخطاب واضحا وموجها لكل من تسمن المسؤولية، ولكن كانت استجابة الجهات السياسية المتصدية للعمل السياسي والمشاركة في الحكومة وصنع القرار، استجابة متكبرة ومتعالية على سماع هذا النصح

وفق منهج العدل والمساواة بين جميع المواطنين واعتماد مبدأ الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية لتكون الشرعية في نهاية المطاف بيد الشعب، والشعب وحده هو مصدر الشرعية، وهنا تركزت النقطة الجوهرية في رؤية المرجعية، وهذا ما يفسر وقوفها بصلاية وحزم من أجل إقرار هذه المبادئ في بناء الدولة وذلك بعدما حاولت أطراف داخلية وخارجية الالتفاف على إرادة الشعب وتشكيل دولة وفق مبدأ الدكتاتورية المبطنة التي تديرها مجموعة محدودة من الكيانات من دون أن تكون هناك إرادة شعبية في اختيارهم أو محاسبتهم أو استبدالهم.

لقد وعت المرجعية وعيا تاما لتاريخ هذا الوطن وتاريخ شعبه الصبور، واطلعت على الحقب الزمنية والأدوار السياسية التي مرت عليه حيث كانت القوى الخارجية وبالتعاون مع فئات داخلية محدودة تسلك بزمام الأمور وتعمل على احتكار الإرادة الوطنية وتشكيل سلسلة من الحكومات والأنظمة الموالية لها عبر الانقلابات والمؤامرات والصفقات التي لم يكن للشعب فيها أي رأي أو قرار أو مصلحة وإنما كانت كلها بالضد من مصالح الوطن وخيارات الشعب. لذلك ومن خلال هذا الفهم لتاريخ الوطن وتاريخ الأنظمة المتوالية عليه فقد قررت المرجعية إرساء معادلة جديدة لبناء نظام الحكم في العراق تغيير المعادلات الجائرة السابقة، ليكون الشعب هو مفتاح هذه المعادلة الجديدة التي بتطبيقها يتمكن العراق من أن يطوي مرحلة مظلمة دامت قرابة القرن من الانقلابات العسكرية والمؤامرات والجور والظلم ومصادرة الإرادة الوطنية وانتهاك السيادة وتبديد الثروات والمقدرات، وبهذه الاستراتيجية قررت المرجعية المضي قدما في بناء هذا النظام الجديد ولكن التحدي الأكبر كان يتمثل بوعي الشعب وإدراك أهمية الدور المناط به في بناء الوطن وتقرير مصيره لأن النظام الجديد لا يمكن أن يبنى بدون شعب واع معيا بثقافة وطنية عالية تشعره بمسؤوليته الخطيرة والمباشرة في انتخاب وصناعة مؤسسات الحكم ومحاسبتها واستبدالها في حالة التقصير عن أداء واجباتها، و وفق هذا المنهج جندت المرجعية كل طاقاتها من أجل حت الشعب، وبروح الأبوة الصالحة الحانية، على المشاركة في بناء وطنه وعدم الاتكال على الآخرين والتقاعس والتراخي في انجاز هذه المهمة الوطنية المقدسة، كما أنها أي المرجعية وقفت وأعلنت بصوت عال و بوضوح تام لا لبس فيه من أنها تقف على مسافة واحدة من الجميع وأنها لا تدعم جهة سياسية معينة دون أخرى وإنما تركت تحديد ذلك إلى الشعب ليتحمل بذلك كل المسؤولية عن خياراته، ومن دون أن تبخل (المرجعية) عليه بالنصح والإرشاد والتوجيه لحسن الاختيار. إن تداول السلطة وبناء مؤسساتها وفق مبدأ الانتخابات هو الأسلوب الأمثل لإدارة بلد متعدد المكونات كالعراق والطريقة المثلى للحفاظ على وحدته وتوفير الحد الأمثل للعدل والمساواة وإلا فإن بديل الانتخابات سيكون التسلط والتآمر

■ د. شواهد من أدوار المرجعية في العراق:

في عالم اليوم وفي العراق تحديدا ومن عاصمة التشيع النجف الأشرف على وجه الخصوص، تقف المرجعية القاندة بكل وعي وحزم وحكمة أسوة بأسلافها وعلى خطى منهجهم القويم، تقف لتجابه أمواج التحديات والمخاطر والأزمات المحدقة بالإنسان والأرض والمقدسات، وقد كانت لها عدة أدوار تتماشى وطبيعة المرحلة والظرف، ولكن مع دخول العراق مرحلة الانتعاق من سطوة الدكتاتورية التي اندحرت يوم أن قرر الشعب العراقي الصابر والممتحن، أن يقف جانبا ويتركها تواجه مصيرها المحتوم على يد القوات الأجنبية التي دخلت العراق، عند تلك المرحلة الحساسة والخطيرة برز دور جديد للمرجعية القاندة بطريقة تتناسب ودقة الموقف وتطور الأحداث حيث سُجل لها من الأدوار العظيمة والمواقف الكبيرة المشرفة التي حفظت بها العراق وشعبه وبكل مكوناته وأطيافه، من تأمر أهل الداخل وأهل الخارج، ضاربة بذلك أروع الأمثلة للقيادة الحكيمة المتزنة التي لا يغلب غضبها حلمها ولا يقعد بها حلمها عن الغضب لله وللدين الحق والوطن، كما قدمت أجلى المواقف التي تمثلت فيها بأخلاق أصحاب المقام الأول وبهدي سيرتهم النيرة.

إن مقطعا من الزمن تقف فيه المرجعية بكل ملكاتها مع جموع الشعب الموالية والشجاعة، لتنفرد فيه بمعارك العراق كافة وعلى أكثر من صعيد وأكثر من جهة وضد أكثر من عدو، لايد من التوقف عنده ويتسنى فهم حقيقة هذا الدور الكبير لايد من أجل الوعي بطبيعة المرحلة وأهميتها في تحديد حاضر ومستقبل العراق والمنطقة أجمع. وبوقفة فاحصة دقيقة يمكن تتبع طبيعة الأدوار التي اضطلعت بها المرجعية خلال عملية صنع العراق الجديد، عراق يحمل إرثه العظيم ويعي دوره الكبير، ولعل من أبرز هذه الأدوار هي: بناء الدولة الرشيدة، لكي يتسنى فهم حقيقة هذا الدور الكبير لايد من فهم واستيعاب مصطلح (الأبوة الصالحة) بكل ما يحمل هذا المصطلح من معنى وعمق، فكما أن الأب الصالح يربي أبنائه على أسس من التربية الأخلاقية العالية التي تجعل منهم أبناء صالحين يتحملون مسؤولية الواجبات الملقة على عاتقهم أمام الأسرة والمجتمع من دون أي تدخل للأب في خيارات الأبناء، كذلك هي المرجعية، حيث وقفت ومنذ الساعات الأولى التي أعقبت انهيار النظام الدكتاتوري في العراق، وقفت لتعلن منهجها ورؤيتها للعراق الجديد وطبيعة بناء نظام الحكم وإنشاء الدولة، وكانت رؤيتها تلخص في ضرورة بناء دولة تحترم وتحتضن كل مكونات الشعب وفق معيار العدالة، وقد أطلقت عليها مصطلح الدولة الرشيدة والتي يعتمد في بناءها على عدة مرتكزات أهمها إعداد دستور تشارك جميع المكونات في كتابته ويحظى بالقبول من أغلبية الشعب ومن ثم اعتماد نظام انتخابي عادل يتم عبره انتخاب مجلس النواب والذي بدوره يقوم بتشكيل الحكومة التي تكون مسنولة عن حفظ الوطن وخدمة الشعب